نظر في محاسن حلب واثارها وتجارتها

للاب بولس جرون اليسوعي (تابع لما سبق)

٣

لمَّا كان موقع الشهباء في مفرق الطرق التي لم يرَ قدماء الفاتحين بدًّا من اجتيازها استلفتت اليها ابصار اصحاب الغزوات سواء زحفوا بجيوشهم من مصر والشام الى بلاد ما بين النهرين او قدموا من بابل ليشنُّوا الغارات على الشعوب المتاخمة للبحر المتوسط وعليهِ فانَّ تاريخ حلب منذ امد مديد يشهد بتقلُّب احوالها وانتقالها من دولة الى دولة حتَّى صارت الى سلاطين آل عثمان المظفَّرين

وعُرفت حلب في ايَّام السلوقيين باسم اشتُقَّ من لغة المقدونيِّين وهو « بيرية » (Βερoια) لشَبَهها بهِ سلوقوس نيقاطور اوَّل ملوك الشام من اليونان لما فتحها (سنة ٣١٢ ق م) وجدَّد بناءها وجعلها مدينة منيعة تقوى على قمع طُغيان اعدائهِ وقد جاء شاهد في الاسفار الكريمة على حصانتها. وهو ذكر بُرْج مُرتفع كان علوُّهُ خمسين ذراعًا بهِ قُتِل مَنلاوس خَصم يهوذا المكابيّ (سفر المكابيين الثاني ف ١٣ ع ٤—٥)

ثم صارت حلب بعدئذٍ بحوزة الرومان في عهد بمبيُوس وكانت السيادة في ذلك الوقت لقنسرين تمرُّ عليها القوافل ذهابًا وايابًا واماَّ حلب فكانت لاحقة بمنبج متخلِّقة باخلاقها متديِّنة بدينها عابدةً لاصنامها. ودخلها اليهود قبل المسيح بزمن قليل وكثروا فيها حتَّى صارت من حواضرهم. ولمَّا انجست عيون التعاليم المسيحية وجرت في جميع اقطار العالم نالت حلب حظَّها من زلال مياه الدين النصرانيّ. وجاء في تقليد الكنيسة اليونانية انَّ القديس تيمون احد الشمامسة السبعة المذكورين في سفر الاعمال بشَّر الانجيل في حلب ثم انتقل منها الى بُصرى في حوران. وكانت اسقفيَّة حلب متعلقة بكرسيّ انطاكية وفيها التأم مجمع من الاساقفة في اواسط القرن الخامس

وكانت القديسة هيلانة امّ قسطنطين الكبير لمَّا قدمت الى الشرق اجتازت بحلب وتركت فيها آثارًا من جودها وكرمها فانَّها عمَّرت كنيسة واسعة الفناء محكمة

الاتقان وفي مكانها بُني الجامع الكبير الذي يعرف بجامع زكريّا. ومن اعمالها المشكورة انّها جدّدت القناة التي بها تجري المياه من حيلان كما مرّ

ثمّ اخذت حلب تنمو وتزداد شأناً حتّى فتحها اوّلاً كسرى الاوّل ملك العجم لمّا زحف على انطاكية في عهد يُسطنيان ملك الروم. ثم عاد الفرس وفتحوها ثانيةً في زمان كسرى انوشروان واحرقوها سنة ٦١١ فلم يسلم منها الا القليل بهمّة بطريرك انطاكية ميغاس (Mégas) الذي دفع عنها جيش الفرس بحسن سياستهِ ورقيهِ. ثم امر انوشروان بترميم اخربة حلب وتحصينها فرجعت الى ما كانت عليهِ سابقاً من النضارة

قال البلاذريّ: ولمّا ظهرت دولة العرب سيّر ابو عبيدة الى حلب جيشاً يقودهُ عياض بن غنم فصالحهُ اهلها وطلبوا الامان على انفسهم واولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم وقلعتهم فاجاب عياض الى طلبتهم

امّا تاريخ حلب بعد الاسلام فلا يمكن حصرهُ في مقالة وجيزة كهذه لانّهُ تعدّدت على ملكها الدول الاسلامية متناوبةً في تدبيرها حتّى صارت الشهباء من عواصم الشام وغلبت قنّسرينَ ومنبج بارفاقها وسعة تجارتها وكثرة عدّتها وعُددها. ومتّن أيّدوا حلب عظمةً ورونقاً ملوك بني حمدان لاسيما سيف الدولة الذي خلّد ابو الطيب المتنبّي بشعرهِ ذكرَ غزواتهِ وحروبهِ مع الروم. ثمّ توالى عليها ملوك بني سلجوق (من ١٠٩٠ الى ١١١٧ م) ثمّ ملوك بني أرتق اصحاب ماردين (١١١٧ — ١١٢٦) فملوك الموصل. واستولى عليها مدّةً الاسماعيليّون ثمّ السلاطين من بني أيّوب (١١٨٣) فأعلوا منارها ورفعوا شانها وبقيت تحت سلطتهم الى سنة ١٢٥٨ فأخربها اذ ذاك المغول (مش ١: ٣٦٧) وقتلوا سكّانها بحدّ السيف ثم صارت في يد ملوك مصر الشراكسة حتّى دخلها تيمورلنك بجيشهِ سنة ١٤٠٠ فعاث بها وجعل أبنيتها رمماً. وفي آخر الامر احتلّت ربوعها جيوش الدولة العليّة وخفقت فوقها اعلام السلاطين المعظّمين من آل عثمان في عهد سليم خان الاوّل سنة ١٥١٧

٤

وان سألنا احدٌ ترى ماذا ابقت لنا من الآثار كل هذه الدُّوَل التي تعاقبت بالملك على حلب نجيب ان من يستقري عاديّات هذه المدينة يجد فيها ذكرًا لجميع هذه

الممالك الغابرة. وقد سبق لنا ذكر كتاباتها الحثّية (ص ١٧) المنبئة باستيلاء الحثيين عليها فلا حاجة الى التكرار

امّا اليونان والرومان فقد خلّفوا لنا من ولايتهم في حلب بعض الآثار منها بقايا أطلال ماثلة عند باب انطاكية يزينها نقوش ناتية مُخكَمة ولعلّها كانت سابقًا قوسًا اجتاز تحتهُ بعض الملوك المظفّرين ولا مراء في أنهُ كان غايةً في الحسن ودقّة الصنع. وعند باب النصر حائط فيهِ حجر كبيرة نُقرت فيها كتابة يونانيّة وقد ادخلت في ضمن الحائط معكوسةً والحلبيّون يزعمون انّ من مسّها زالت عنهُ ثآليل اصابعهِ

ومن الآثار الرومانيّة بناية رُممت منذ زمن قليل موقعها في المدرسة المعروفة بالحلاوية وهذه المدرسة عبارة عن بناء مستطيل في صدرهِ قاعة مُثقّلة وفي وسط القاعة عَمَد قديم على هيئة قوس بازائهِ عمودان آخران وهذا بلا شكّ من عهد الرومان كان سابقًا على صورة صليب مستدير الاطراف كما ترى في الشكل وكان لاحقًا بالجامع الكبير المذكور آنفًا وهو قريبٌ منهُ

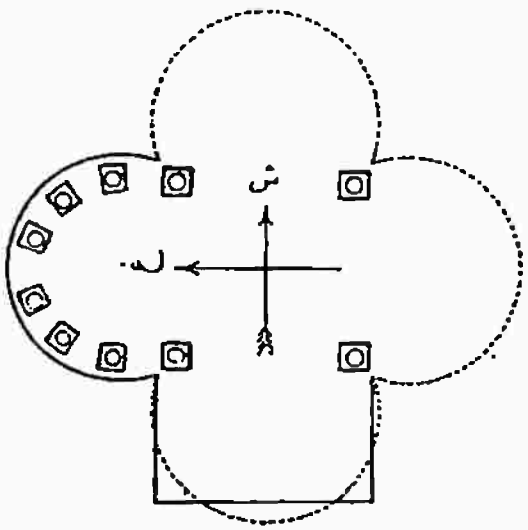

اثر روماني في المدرسة الحلاويّة بحلب

ونظن انّ القديسة هيلانة قد بنتهُ مع الكنيسة الكبرى الموما اليها وجعلتهُ محلًّا للعماد (١ . والدليل على ذلك ان المدرسة الحلاويّة تُسمّى ايضًا بالهيلانيّة ذكرًا لامّ قسطنطين الملك. والعمد المذكور من الرخام وفي رؤوسها نقوش تمثل ضروبًا من النبات تشبه نقوش قلعة سمعان. وهذه العواميد قليلة الارتفاع قد طُليت حديثًا بالالوان وبُني فوقها قبّة

١) وفي كاتش رومة ابنية قديمة على هذا المثال كان يُعمَّد فيها المسيحيّون

ولم نطّلع على غير هذا النزر القليل من آثار اليونان والرومان. اما مآثر الدُّول الاسلاميَّة في حلب فهي عديدة ولو لم تذهب بكثير منها طوارئ الزمان والحروب والزلازل لما تأخّرت حلب عن غيرها من حواضر الاسلام كالقاهرة وبغداد ودمشق من حيث فنونها وصنائعها. ولاهل حلب في بنائهم خصوصاً طرائق بديعة احرزت لمدينتهم شهرة عُظمى ولا يخلو منهم الى يومنا هذا عَمَلة ماهرون لهم اليد الطولى في حُسن البناء. وفي ابنية الامير بشير في بيت الدين اشغال دقيقة تشهد للحلبيين بطول الباع في الزخرفة والنقش

ومن آثارهم عدَّة جوامع ومساجد يرتقي عهدها الى خمسمائة سنة وُنيّف أجاد اصحابها في بنائها وهندامها منها جامع الاطروش في جنوبيّ القلعة فانك ترى فيه شغلاً بديعاً صبر بعضهُ على آفات الدهر وتولّى الخراب على باقيه. ومنها جامع البيّادة في شمالي غربي القلعة وهو مشهور بنقوشه وكتاباته. ومنها المارستان الذي على الطريق المؤدّية الى باب قنسرين لهُ مَدخل يزينهُ افاريز ونقوش في غاية الجمال. وباب قنسرين المذكور بدعة من بدائع الهندسة عليه خطوط وكتابات رائعة الحُسن. واذا اجتزت من هذا الباب وسرت شمالاً بميلٍ الى الشرق بلغت مدافن البلد تجد بينها قبوراً محكمة العمل وهناك ايضاً مساجد حسنة. وكان للمدينة سور حصين بقي اكثرهُ وتهدَّم بعضهُ ولهذا السور عشرة ابواب ويحيط بهِ خندقٌ عظيم. ولم تزل الى يومنا صورة الاسد وهو شعار الملك الظاهر بيبرس منقوشةً في جوانبهِ كما نُقشت في القلعة

٥

بقي علينا ان نذكر شيئاً عن تجارة حلب وذلك نقلاً عن قوم لهم فيها اليد الطولى. منهم المسيو پوخر (G. Pocher) الذي تكرَّم علينا بالافادات المفصَّلة في ذلك

قد سبق لنا القول انَّ موقع انشهباء على ممرّ القوافل الناقلة لأرفاق آسية من الشرق الى الغرب ومن سواحل الشام الى البلاد النائية عن البحر. فصارت في القرون الغابرة جامعة لخيرات اقطار شتَّى وامصار قصوى تأتيها السلع الثمينة من العجم والهند كاصناف الانسجة والحرير والحجارة الكريمة ولؤلؤ البحرين وعلم جرًّا. ولم تزل على هذه الحال من الثروة والغنى حتَّى تمكَّن الاوربيون في اواخر القرن الخامس عشر من الوصول الى الشرق الاقصى مُبحرين على طريق رأس الرجاء الصالح جنوبيّ افريقية

فخمدت الحركة التجاريَّة في حلب بعض الخمود وعدلت الشركات الاوربيَّة من الانكليز والنمسويين والبنادقة والفرنسويين والهولنديين عن السُّكنى فيها لترويج متجرهم

الا انَّ الضربة اللازبة التي دُهمت بها تجارة حلب كانت في السنة ١٨٦٨ عند فتح ترعة سويس. وذلك انَّ حلب بعد ان شرعت السفن الاوربيَّة تمخر عباب البحر دائرةٌ حول افريقية لم تكُ تفقد سوى قسم من تجارتها مع البلاد القاصية كالصين والهند والعجم لكنَّها كانت تنتفع برافق ارمينية وسوريَّة المتوسطة وبلاد ما بين النهرين والعراق وبعض اقطار فارس. وكانت القوافل لم تنفكّ عن سيرها الحثيث فتأتيها بجانب كبير من الانسجة والصوف والعفص والصمغ والبذور. وبها كانت تُباع الطنافس الفارسيَّة الغالية الثمن والشالات والثياب المطرَّزة والطيالسة المدبَّجة بالاقصاب والاقمشة المُلمَّة والاخرام المصبوغة. وكثيرًا ما كان يبلغ عدد الابل الناقلة لكل هذه المتاجر ٥٠٠٠ وثيقًا

ولكن ما كاد ينتهي دي لسبس من فتح ترعة سويس فجمع البحرين المتوسط والقلزم (الاحمر) حتَّى صارت تجارة الموصل وبغداد وسائر العراق تجري على دجلة فشطَّ العرب فبحر العجم وتبلغ بعد بضعة اسابيع الى اقصى بلاد العرب فكسدت بذلك تجارة حلب وهبطت هبوطًا عظيمًا

غير انَّ الله اتاح لحلب والاقطار المجاورة لها طرقًا جديدة للمعاش وذلك انَّ كثيرًا من القبائل التي كانت من ذي قبل ترتزق بالسلب والنهب ركنت الى السكينة بهمة الدولة العليَّة فساد الامان لقسم كبير من تلك البراري المخصبة الواقعة في شمالي شرقيّ حلب فراجت فيها الفلاحة وزكا الزرع فاستحسن الاوربيُّون خصوصًا اهل ايطالية هذه الحنطة لعمل المعجونات كالمكروني وغيره وابتاعوها فضلًا عمَّا سواها. ثم جعل كثير من الاهلين يُعنَون بتوفير المواشي ورعي القطعان فتوفَّرت الاصواف وكثر مبيع السَّمن ونال البعض بذلك ثروة طائلة. ولا شك انَّ مفازات ضفَّتي الفرات طيِّبة التربة فلو اصلحها اصحابُها وعالجوها على طريقة الاوربيين الحديثة في الفلاحة لزاد خصبُها زيادةً عجيبة وأغنت سكَّان تلك البلاد. كيف لا وهي التي كانت في ايَّام ملوك بابل تغلّ المئتين بدل الواحد كما يشهد بذلك هيرودوت المؤرخ

ومما يتاجر به اهل حلب في زماننا عرق السوس يربح منهُ التجار في كل سنة مليوني فرنك ونصفاً يبيعونهُ خصوصاً للاميركيين. وكان الاهلون منذ اعوام قليلة يتتلعون هذه العروق ويعدُّونها آفةً لارضهم فاضحت اليوم من اكبر وسائل معاشهم

ومن ضروب الغلَّات التي يتاجر بها الحلبيُّون البذور باصنافها كالقمح والشعير والسمسم والذُّرَة والعدس والحمص. ومنها التوابل والافاويه كالجوز واللوز ولاسيما الفستق المشهور والاثمار المجفَّفة كالزبيب والتين والاجَّاص والمشمش. واكثر هذه الغلاَّت من بساتينها التي تبلغ نحو ٤٠٠ عدًا يسقيها نهر القُوَيق الذي دعاهُ المؤرخ كزينوفون «غالس». ومن وجوه متاجراتها ايضاً الشمع والجلود والصموغ كالكثيراء (Adragante) والحمودة (Scammonée) والتبغ والقنَّب والخروع. ومنها الصَّمن والزيت والصابون يصطنعونهُ بزيتهم فيبيعونهُ الا انَّ اهل كلِس وعينتاب وانطاكية وادلب تزاحم الآن حلب في الصابون ولكلها مصابن حسنة

ومن البضائع الصادرة من حلب للجهات نحو ٢٠,٠٠٠ بالة من الصوف ومن ١٠,٠٠٠ الى ١٢,٠٠٠ بالة من القطن ونحو ٣٠٠٠ بالة من العفص

اما الانسجة فقد اقتصر اهل حلب على صُنع المنسوجات الحريريَّة والقزليَّة لا يحيكون غيرها ولكن هذه التجارة لم تعد تربح الَّا الزر القليل منذ شرع اهل عينتاب ينسجون على طرازها ويبيعون انسجتهم بثمن أبخس من الانسجة الحلبيَّة. وكذلك كسدت سوق الصباغة منذ وردت حلب صبوغ الأليزارين (Alizarine) فلم يَعُد رواج للنيل والأنيلين

اما الواردات التي ترسل الى حلب من البلاد الاجنبية فكثيرة نخصُّ بالذكر منها السُّكَّر واصناف الحبوب والبذور كالبهار والبنّ ومنها ضروب الانسجة الاوربيَّة والاقمشة المستعملة لصنع الازياء الجديدة

وكثير من المعادن كالرصاص والحديد والنحاس والتنك المصفَّح والزجاج والاجواخ وانسجة ليون وسويسرة وايطالية الحريريَّة. والقرمز والنيل وهلمَّ جرًّا

ويبقى لحلب واهلها املٌ حسن في المستقبل فاذا مُدَّت الاسلاك الحديديَّة بينها وبين العراق والهند ثم اتَّصلت بساحل بحر الشام سيعود اليها مقامُها القديم وشأنها العظيم. والله قادر على احياء الرمم يرفع منزلة البلاد ان شاء ويهبط بها الى قعر

الذلّ اذا لم يُرد لها خيرًا

ويؤيد املهم نموّ عدد السكّان في حلب في هذه السنوات المتصرمة. وقد وجدنا في تقويمها (السالنامة) الاخير انّ عدد اهلها يبلغ ١٠٨,٠٨٦ منهم ٧٦,١٢٨ مسلمًا و ٨٠٤٢ رومًا كاثوليكيًا و ٣٩٧٦ ارمنيًا كاثوليكيًا و ٢٦١٧ سريانيًا و ١٩٩٥ مارونيًا و ٣٥٣ لاتينيًا و ١٦٢ كلدانيًا والباقي يهود وبروتستان واجانب

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

٤ تابع دير القلعة

بيّنا في ما سبق انّ الاله المعبود في دير القلعة كان اسمهُ بعل مرقد. فلمّا استولى الرومان على الشام أدرجوا هذا الاله الفينيقي في مصفّ آلهتهم بل اعتبروهُ كأنّهُ هو معبودهم الكبير «المشتري» لا يفرقهُ عنهُ الّا اسمهُ فشيّدوا لهُ ذلك الهيكل العظيم الذي حجّهُ السوريّون والرومان معًا. والكتابات اللاتينيّة التي فيها ذكر «المشتري بعل مرقد» كثيرة. وكان اهل بيروت المدعوّة في ذلك العصر «المستعمرة جوليا اوغستا السعيدة» يقيمون فيهِ انصابًا للملوك رومة من جملة ذلك نصبُ للقيصر ادريانُس استُخرج محطّمًا من تحت الرّدم منذ سنة بتّف قليل اسعدنا الحظّ على قراءة مضمونها كما يأتي (١ :

[Imp.]CAESARI DIVI	[للامبراطور] القيصر الالهيّ
[Tr]AIANI PARTHICI FIL(io)	وابن [طر]ايانس الفرطي الالهيّ
DIVI NERV(æ nepoti)	ونسيب نِرْفا
TRAIANO HADRIANO AV(gusto)	لطرايانس ادريانس اوغستس
PONTIFI(ci) MAX(imo) TRIB(unitia)	الحبر الاعظم بسلطة مثلي الشعب
POT(estate) - COS III P(ater) P(atriæ)	قنصل للمرّة الثالثة اب الوطن
COL(onia) IVL(ia) AVG(usta) FEL(ix)	المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة
B(erytus)	بيروت

١) وقد وضعنا بين معكّفين ما يُقتضى زيادتُهُ